

المرأة في الخطاب الإسلامي المعاصر: إشكاليات اللغة والثقافة

الفضائيات الدينية ومواقع التواصل
الاجتماعي أمودجاً

خلود سعيد عامر
باحثة مصرية



قسم الدراسات الدينية

توطئة:

استخدم مصطلح "الخطاب الديني" بكثرة مع بداية الألفية الثانية مضافاً إلى "تجديد" ليكون موضوعاً محورياً لعدد من الدراسات والأبحاث. وكان الأزهر ودار الإفتاء وإذاعة القرآن الكريم هي الجهات المؤسسة الرسمية المخوّل لها هذا التجديد لتواكب العصر في مقابل جمود مشايخ المساجد والزوايا وخطاب "الدعاة الجدد"¹ وشيوخ الفضائيات التي تطلق على نفسها دينية². حدث هذا بالتزامن مع حراك من نوع آخر هو دعوات "الإصلاح" التي أطلقها الحزب الوطني الديمقراطي الحاكم في ذلك الوقت³ بشعارات دعائية رنانة مثل "فكر جديد وأوليات الإصلاح"⁴. لكن دعوات الإصلاح فشلت مع تفشي الفساد⁵ وتوحش النظام الحاكم وخاصةً القبضة الأمنية. وكانت الثورة في 25 يناير⁶ 2011 حتمية⁷. بالمثل، لم تلق دعوات تجديد الخطاب الديني الصدى المطلوب، ولم تنجح في صد الأفكار المتشددة والمتطرفة ومنعها من اختراق العقل الجمعي للمصريين.

مثاليًا، جاءت ثورة يناير لتعطي صوتاً لمن لا صوت لهم، وطالبت المجموعات الاجتماعية المختلفة بمساحتها في هذا المجال العام الذي أضحي، بفضل دماء الشهداء وتضحيات المصابين والثوار، متسعاً للجميع وأصبح بحق "الشارع لنا"⁸ بعد أن كان مقتصرًا على النظام والمختارين من قبله والمقربين له والمنتفعين منه ممن وجدوا لأنفسهم مكانًا.

¹ مصطلح كان يستخدم للدعاة الذين ظهرُوا في هذه الفترة وكانوا يتميزون بأنهم شباب ولا يلتزمون بالزي التقليدي للمشايخ (من عمّة وقفطان) وأغلبهم لم يدرس في الأزهر، ولم يكن المسجد أو الزاوية ساحتهم التقليدية لدروس الدين؛ بل انتقلوا إلى الأندية الرياضية والأماكن العامة، والأهم الفضائيات (شاع حينها أيضًا مصطلح "شيوخ الفضائيات"). بدأت هذه "الظاهرة" مع بزوغ نجم عمرو خالد، وصارت محل جدل مجتمعي مع المشكلة التي حدثت بينه وبين الإعلامي مفيد فوزي حين اتهمه الأخير بأنه "يجيش الجيوش" في إشارة إلى تأثيره على عدد كبير من شباب الطبقات العليا. توقف استخدام هذا المصطلح، ربما لأن هؤلاء الدعاة احتلوا الصف الأول وأصبحوا نجومه قبيل الثورة، حدث تراشق وجد طريقه إلى الفضائيات- نذكر منها "الناس" و"اقرأ"- بين أبو إسحق الحويني وخالد عبد الله ومحمد حسان كممثلين للدعاة التقليديين من جهة، وبين مصطفى حسني ومعز مسعود وعمرو خالد من جهة ثانية كممثلين لهؤلاء الدعاة الجدد. تنحصر اتهامات الفريق الثاني للأول بالترحم والتشدد والعلو مما يؤدي إلى تنفير الناس من الدين، أما الفريق الأول فيرى أن هؤلاء الشباب ليسوا فقط متساهلين ولكن مفرطين ويدعون إلى نسخة "مودرن" من الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان. من المثير للاهتمام أن خالد عبد الله نفسه ينتمي- من حيث الظهور والمظهر- إلى هذا الجيل من الدعاة الجدد، وكذا صفوت حجازي وخالد الجندي.

² بدأت مع العقد الأول من الألفية الثانية، وكانت أول قناة من هذا النوع هي "الناس" وقد لاقت قبولاً خصوصاً في الريف والمناطق ذات الدخل الأقل.

³ تم حله بحكم المحكمة الإدارية العليا في 16 إبريل 2011.

⁴ كان أحد شعارات المؤتمر العام التاسع للحزب عام 2007.

⁵ وذلك باعتراف رموز النظام أنفسهم. وربما جاءت أشهر عبارة في هذا السياق على لسان زكريا عزمي عندما كان رئيس ديوان رئيس الجمهورية وعضو مجلس الشعب "الفساد في المحليات للرُكب".

⁶ وجب التذكير أن "الحدث" event الذي أطلقته صفحة "كلنا خالد سعيد" على موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك في أعقاب هروب زين العابدين بن علي من تونس إلى السعودية كان بالأساس يومًا للغضب ضد التعذيب المنهجي الذي يمارسه جهاز الشرطة، وأختير يوم عيد الشرطة (25 يناير) لهذا السبب. وكانت الهتافات المتفق عليها بين القوى السياسية المختلفة تطالب برحيل حبيب العادلي؛ وزير الداخلية، بالإضافة إلى بعض المطالب الاقتصادية والاجتماعية. ولكن الجموع التي شاركت باغتت الجميع وظهر هتاف "يسقط يسقط حسني مبارك" مدوياً مع بداية المسيرات.

⁷ الجدير بالذكر أن أحد أشهر رسوم الحائط (الجرافيتي) والشعارات التي ظهرت مع الثورة "كن مع الثورة" تم تنفيذه أولاً خلال الدعوة لإضراب 6 إبريل 2008.

⁸ أحد أبرز الشعارات الثورية وهو مأخوذ من أغنية لماجدة الرومي من فيلم "عودة الابن الضال" إخراج يوسف شاهين وإنتاج 1976.

وكان بين هؤلاء من اصطلح على تسميتهم بـ "إسلاميين"، ممن يدعون أن الإسلام هو شريعتهم وأسلوب حياتهم. لكنهم، وهو ما يخفى على البعض ويتعمد البعض الآخر إخفائه، ليسوا مجموعة متجانسة أو كتلة منسجمة يمكننا وضع مسمى واحدًا لها، فبين جماعة الإخوان المسلمين ذراعها السياسي؛ حزب "الحرية والعدالة" والدعوة السلفية ذراعها السياسي؛ حزب "النور" فجوات فكرية وإيديولوجية وسياسية كبيرة تكاد تكون متناقضة. وربما عكس مشروع الدستور وردود الأفعال عليه هذه الثنائيات، فبينما أيده الإخوان المسلمون وبادروا بالدفاع عنه لكونه يضع الشريعة ومبادئها وأحكامها، ومن ثم هوية المجتمع وعقيدته وصمام أمانه كما يروجون، في صدر اهتماماته، رفضته بعض التيارات السلفية لكونه لا يناصر الشريعة بما يكفي وكما هو مطلوب ومتوقع من "رئيس إسلامي" هو "المرشح الإسلامي الوحيد"⁹ في انتخابات الرئاسة. وتلا ذلك تراشقات لفظية بين الطرفين وصلت ذروتها في أعقاب استبعاد خالد علم الدين؛ القيادي بحزب النور، من منصب مستشار الرئيس لشؤون البيئة عندما اتهم حزب النور حزب الحرية والعدالة بالعمل على "أخونة الدولة" وأعلن عن تقديم مستندات رسمية إلى الرئاسة تثبت ذلك.

زخر المجال العام بكل هذه الأفكار وغيرها دفعة واحدة، وتعرى المجتمع المصري أمام نفسه ومرآته وضميره قبل أي شيء وبقي سؤال اللحظة الراهنة: من أنا. وبدأت محاولات الإجابة عنه كلها مضطرة لإلغاء ما عُد مكوناً رئيسياً من مكونات الشخصية المصرية، أو على أقل تقدير، مضطرة لإعادة ترتيب هذه المكونات من حيث الأهمية.

يُعنى هذا البحث برصد وتحليل وتفكيك الخطاب الإسلامي المعاصر، وخاصةً ذلك المستخدم في فضائيات دينية من مثل "الحافظ" و"الناس" و"الرحمة" و"الحكمة" و"ماريا"¹⁰، وذلك المتداول الذي يحظى بزخم على مواقع التواصل الاجتماعي وخاصةً: فيسبوك وتويتر ويوتيوب في الفترة التي سبقت ثورة يناير 2011 وحتى وقت الانتهاء من كتابة هذه الورقة، من منظور نسوي وباستخدام أفكار ميشيل فوكو (1926-1984) ونظريات تحليل الخطاب النقدي ومدراس فلسفية ونقدية مثل التفكيكية والمادية الثقافية والتأريخية الجديدة.

ويحاول البحث فهم علاقات هذا الخطاب بما يعرف بالمجال العام أو الحيز العام، ومن ثم علاقات القوة والسلطة، وبذلك يتقاطع فيه علوم السياسة والاجتماع واللغة والأدب واللسانيات وفروعها. وليس معنيًا على

⁹ جاء هذا نصًا في عدة مواضع أثناء الحملات الانتخابية للجولة الأولى لانتخابات الرئاسة: لقاءات تلفزيونية وصحفية ومؤتمرات انتخابية على لسان قياديين بجماعة الإخوان المسلمين وحزب الحرية والعدالة ومسؤولين بالحملة ومرسي نفسه.

¹⁰ لا تخضع قناة "اقرأ" ذات التمويل السعودي لمثل هذا التصنيف عادةً، على الأقل لا تُصنّف مع قنوات "الناس" و"الحافظ" و"الرحمة" و"ماريا" على سبيل مثال، ولذا لم تدرج ضمن نطاق هذا البحث. لا يتطرق البحث أيضًا إلى قناة "أزهري" والتي أطلقها الأزهر الشريف في محاولة للتصدي لفوضى الفتاوى والدعاة، ولا قناة "الرسالة" الأقل ذبوعًا في مصر، ولا يصنف قناة "مصر 25" الناطقة باسم حزب "الحرية والعدالة" وجماعة الإخوان المسلمين كقناة دينية.

الإطلاق بإلقاء الضوء على وضع المراة في الإسلام، لكن تجدر الإشارة إلى أن الباحثة تنطلق من تصور وفهم عُرف بأنه "وسطي" أو "صحيح"¹¹ لكن ربما يعده البعض "تقدمياً"¹² عن دور المراة في الإسلام وكيف ساهمت الأجيال المتلاحقة من المسلمات في نشر الدعوة وبناء المجتمع رغم سقطات التاريخ، الذي غالباً ما يُكتب بأقلام الرجال وعن الرجال فقط، وإغفاله لدورهن. والباحثة بذلك متأثرة بأفكار متعددة لهبة رؤوف عزت وأمنة نصير وأمينة ودود ونصر حامد أبو زيد وفاضل سليمان وآخرين، بالإضافة إلى بعض تيارات النسوية الإسلامية.

نظرة عامة:

يقع معظم الخطاب الإسلامي المعاصر، بشكل عام وبغض النظر عن استثناءات قليلة، في إشكاليتين: إما أنه يرى في المراة فتنة تمشي على قدمين، أو إنه لا يراها أصلاً لا يرى في وجودها أي أهمية على الإطلاق إلا في تحصين الشباب والحفاظ على النسل المسلم. السياسة والمجال العام إذاً يجب ألا تكون في اهتمام المراة من الأساس؛ مجال اهتمامها هو الخاص وليس العام؛ البيت والأسرة ف "بيت المراة مملكتها"¹³. وما زالت آية القوامة للرجل¹⁴ وأحاديث "ما أفلح قوم ولوا أمرهم لامراة"¹⁵ و"ناقصات عقل ودين"¹⁶ متداولة بمعناها الحرفي والاختزالي رغم الآراء والتفسيرات الأخرى التي تعطي وزناً للسياقات والخصوصيات الزمنية والثقافية والاجتماعية، بالإضافة إلى الآيات القرآنية والأحاديث الأخرى من صحيح السنة.

كان من الحتمي إذاً ربط هذا النوع من الخطاب، وهو الأعلى صوتاً ومن ثم الأكثر انتشاراً، بعلاقات الهيمنة والقوة والسلطة داخل المجتمع التي تحاول حثيئاً إسكات صوت المراة. وتجلي هذا في "معركة"¹⁷

¹¹ تستخدم هذه المصطلحات عادةً بالإشارة إلى مؤسسة الأزهر لفصلها عن التيارات الدينية المتشددة (يستخدم مصطلح "الوهابية" بكثرة في هذا السياق)، أو للإشارة لفهم عموم المصريين على مدار تاريخهم للإسلام في مقابل دول الخليج على سبيل المثال.

¹² لأنه غالباً ما يرتبط في الخريطة الإدراكية الجمعية بالنسوية وحقوق المراة، وما توسم به من أنها دعاوي "غريبة" و"مستوردة" و"دخيلة على المجتمع".

¹³ تستخدم هذه الجملة عادةً في سياقات اجتماعية مختلفة فيما يتعلق بالإشكالية المزمنة عمل المراة، لكنها كثيراً ما تستخدم حالياً أيضاً في الخطاب الديني.

¹⁴ "الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتِكُمْ فَلَا نُبَغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً" (سورة النساء آية 34).

¹⁵ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ "لَقَدْ نَفَعَنِي اللَّهُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّامَ الْجَمَلِ بَعْدَ مَا كَذَبْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الْجَمَلِ فَأَقَاتِلَ مَعَهُمْ. قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَهْلَ فَارِسٍ قَدْ مَلَكُوا عَلَيْهِمْ بَنَتْ كِسْرَى قَالَ: لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ". رواه البخاري (4425)، والنسائي في "السنن" (227/8).

¹⁶ جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أنه قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- في أضحية أو في فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: "يا معشر النساء، ما رأيتم من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحدائكن". قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: "أليس شهادة المراة مثل نصف شهادة الرجل؟" قلن: بلى. قال: "فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟" قلن: بلى. قال: "فذلك من نقصان دينها."

¹⁷ اعتبرها كذلك مؤيدو ومعارضو الدستور قبل أن تتحول إلى معركة فعلية عند قصر الاتحادية بالقاهرة ومسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية.

الدستور مادياً ورمزياً، حيث عكس ضعف، إن لم يكن غياب، تمثيل المرأة في الجمعية التأسيسية لوضع الدستور وضع المرأة في المجال العام، وأوضحت الصورة الفوتوغرافية الشهيرة لأحد مؤيدي الإعلان الدستوري/ الدستور/ الرئيس من المنتمين للتيار الإسلامي وهو يضع يده على فم المناضلة اليسارية شاهنده مقلد في محاولة لإسكاتها تصور هؤلاء عن دور المرأة بشكل عام.

اللغة والخطاب والسلطة:

مفردة "الخطاب" في المعجم العربي هي ابتكار قرآني، فأقدم وثيقة باللغة العربية وردت فيها هذه المفردة هي القرآن الكريم، حيث استعملت في ثلاث آيات "وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ"، و"إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ"؛ "رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنَ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا" [ص: 20 و23، والنبأ: 37] على التوالي)، إلا أن استعمالها بقي في الإطار الدلالي اللغوي. (الحاج، 2012)¹⁸.

سطر عبد الرحمن الحاج تعريف الخطاب الذي اعتمده وانطلق منه في بداية كتابه، وهو يتناص ويتقاطع بشكل كبير مع منطلقات هذه الورقة:

أما مفهوم الخطاب في هذه الدراسة فإنه يرجع بشكل أساسي إلى العلوم الاجتماعية الحديثة، وتحديدًا البحوث اللسانية، ذلك أن مفهوم الخطاب فيها يقدم منظورًا تحليليًا أكثر ملاءمةً للتحليل الكلي، كذلك فإن البحوث اللسانية الحديثة منحت مصطلح الخطاب Discourse زخمًا جديدًا في الدراسات اللغوية والأدبية والفلسفية، ودفعت به إلى حيز التداول على أوسع نطاق، ليس بوصفه مصطلحًا تقنيًا فحسب، بل بوصفه نظرية وأداة تحليلية.

نتعامل هنا مع الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية لغوية متصلة بموضوع ما، بكل ما يقتضي ذلك من كونه حدثًا يقتضي أثرًا تجاوز الأثر الإجمالي إلى الأثر الإنشائي. وتواصلًا لغويًا يتكون داخل سياق ما، بحيث يصبح السياق جزء من مفهوم الخطاب ذاته. (الحاج، 2012)

تهتم نظريات الخطاب بالتغيرات الصغيرة في كيفية التعبير عن الأفكار لغويًا، وكذلك بالسياق العام الحالي والسابق. "أي خطاب ليس أثرًا مباشرًا فورياً للسياق المنتج له، بقدر ما هو، بالإضافة إلى ذلك، تواصلًا مع خطاب أسبق يستمد منه مرجعيته ومن خلاله يكتسب مشروعيته" (أبو زيد، 2004). إن الخطاب إذًا كما يُعرفه

¹⁸ وضع الحاج نصوص الآيات في الهامش وليس متن الفقرة.

تايسون هو "اللغة الاجتماعية التي تنتجها ظروف ثقافية معينة في وقت ما ومكان ما لتعبّر عن طريقة معينة لفهم التجربة الإنسانية" (تايسون 1999)¹⁹. الاهتمام بدراسة الخطاب إذًا تحيلنا إلى ما هو أبعد من اللغة، إلى المجتمع بمعناه الواسع، ومن هنا كان علم اللسانيات الاجتماعية.

الخطاب بهذا المعنى يرتبط كليًا بـ"رؤية للعالم" world view، بمعناها الفردي وليس الأنثروبولوجي الاجتماعي، صحيح أن الخطاب ليس معرفة knowledge خالصة بالضرورة، غير أنه يستخدم المعرفة في إطار رؤية العالم، بحيث تبدو المعرفة جزءًا من رؤية العالم، ورؤية العالم تبدو بدورها الجزء الآخر من المعرفة ذاتها، وعبر هذا المزج تولد سلطة الخطاب، إذ يرتبط الخطاب بشدة، بهذا المعنى، بمفهوم السلطة authority بمعناها الاجتماعي والسياسي بوصفها مجموعة علاقات قوة تفعل فعلها في العالم، إذ "تتم فصل السلطة والمعرفة"²⁰ في الخطاب بحيث تمثل السلطة أثرًا للخطاب، الأثر المنظور إليه في نهاياته القصوى، وبحيث إن السلطة ذاتها أيضًا تولد المعرفة وتنشئ الخطاب في سلسلة غير متناهية من تبادل الأدوار. كما يتجاوز الخطاب، بهذا المعنى، حدود النص ليكون عابراً للنصوص في شكل دائم، فهو مرتبط بالموضوع وأطراف الخطاب. (الحاج، 2012)

وتعد أفكار فوكو مفيدة جدًا في فهم سياق الخطاب وعلاقته بتشكيل المجال العام أو "المساحات الاجتماعية" (ويسنانت)، وظهرت بوضوح في كتابيه "الكلمات والأشياء" و"نظام الخطاب". و"الخطاب هو المصطلح الذي صاغه الباحثون لتحليل نظم الفكر والأفكار والصور والممارسات الرمزية الأخرى التي تُشكّل ما نسميه بشكل عام، وفقًا لعلم الأنثروبولوجي، الثقافة" (ويسنانت). الخطاب من أساليب ممارسة السلطة وربما يكون أحد أهم أدواتها. فالخطاب لا يعكس الأفكار فقط ولكنه ينتجها أيضًا، ومن ثم له دور فاعل في التغييرات التي تطرأ على المجتمعات وحركة التاريخ بشكل عام. "ما يكتبه ميشال فوكو في ولادة العيادة على سبيل المثال، هو كيف استطاعت الثورة الفرنسية أن تقلب وبشكل مباشر قواعد تشكل الخطاب الطبي فارضةً عليه أهدافًا وشروطًا جديدة للنطق في المؤسسة: أي ممارسة إدراكية نظرية جديدة" (غرو، 2008).

فالخطاب عند فوكو هو ليس بنية إدراكية أو لا شعورية ذات طابع فكري خالص تنمو وتتطور وفق دياكتيك داخلي خاص فقط، وإنما هو أداة ووسيلة لقوة. كذلك تتبناه مجموعة أفراد داخل المجتمع يتمتعون بأهداف ومصالح مشتركة ويمثلون نسيجًا اجتماعيًا وثقافيًا متميزًا داخل المجتمع الإنساني في لحظة تاريخية

¹⁹ ترجمت الباحثة كل الاقتباسات المأخوذة من المراجع الأجنبية.

²⁰ يحيلنا الحاج في الهامش إلى كتاب فوكو إرادة المعرفة ترجمة جورج أبي الصالح، مراجعة وتقديم مطاع الصفدي. بيروت: مركز الإنماء القومي، (1990) صفحة 108.

محددة. وقد استفاد فوكو من أفكار الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه بخصوص إرادة الفعل والقوة في ربطه لمفهوم الخطاب بالقوة داخل المجتمع وسعيه نحو الهيمنة والاقتصاد. وسيراً على خطى نيتشه الفلسفية، يرفض فوكو إمكانية وجود معرفة موضوعية بالتاريخ كما إنه يرفض وجود حقيقة موضوعية ذات طابع عقلائي. فهو يرى بأن الاختلاف بين الخطابات لا يكمن في مدى تمثل إحداها لحقيقة الموضوع الموضوعية، وإنما في الخطابات التي يتمتع بها الخطاب داخل الفضاء الاجتماعي والثقافي. ويكتسب الخطاب قوته من خلال قوة وهيمنة الطبقة الاجتماعية أو الشريحة التي تتبنى ذلك الخطاب وتماسكه وتطرحة بصفته خطاباً رسمياً.

وبذلك يدخل فوكو البعد التاريخي على مفهوم الخطاب ويجعله المرجعية المعرفية الرئيسية التي تقوم بتنظيم وترتيب الممارسات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية لمجتمع معين داخل حقبة تاريخية محددة. (الطائي، 2006)

في محاولة للإجابة عن السؤال الضمني لماذا يجب أن نتوقف عند اللغة والخطاب، يوجز عبد السلام المسدي، ببلاغة شديدة تليق باللغويين، الأمر برمته، "اللغة سلطة في ذاتها، والسياسة هي السلطة بذاتها ولذاتها... السياسة هي السلطة الحاضرة، واللغة هي السلطة الغائبة" (المسدي 2007). العلاقة بين اللغة والخطاب من ناحية والسلطة من ناحية أخرى واضحة للعيان. فعلى طريقة فوكو، السلطة هي التي تنتج المعرفة²¹، ومن ثم اللغة المستخدمة والخطاب السائد والمهيمن. ومن هنا كان الاهتمام بدراسة الخطاب الديني فهو من ناحية خطاب السلطة الحاكمة بكل ما يحمله هذا من قوة وسيادة وهيمنة وتحكم في مقتضيات الأمور، ومن ناحية أخرى هو خطاب ديني يضيف بعداً مقدساً على كل ما يقدمه، على طريقة الكنيسة الغربية في العصور الوسطى "ده كلام ربنا". هو خطاب نهائي يقدم القول الفصل ولا يترك للمتلقي مساحة لقول آخر بعد قوله، فهو الخطاب الأوحد الصحيح الذي يقدم الحقيقة الإلهية المطلقة (بالألف واللام). فإذا اجتمع في الخطاب أداة السلطة وهذا البعد المقدس صار حرياً بنا التوقف عنده كثيراً.

المرأة في الخطابات الدينية:

في بحثها المُنْعَوَن "حول مواقف القوى السياسية، خاصة الحركات الإسلامية، والحركات الدينية، من تمكين النساء في البلدان العربية"، تعدد هبة رؤوف عزت أربعة استراتيجيات أساسية تتبناها وتؤسس عليها

²¹ من الملاحظ أن المجتمعات السلطوية فقط هي التي تحتاج- أو بالأحرى يوجد بها- وزارة للإعلام (أو "الإرشاد" في عهد جمال عبد الناصر مثلاً أو "المعلومات" في مجتمعات مختلفة)؛ السلطة هي التي تحدد ما يجب على المواطنين معرفته- وبأي صيغة (لغة أو خطاب)- وما يجب إخفاءه. ولذا كان من أهم أطروحات فوكو كما جاء في القوة/ المعرفة أنه ليس علينا فقط دراسة الإطار والبناء العام لأي نظام ولكن أيضاً ما تم استبعاده منه.

التيارات السلفية موقفها المناهض "لمواطنة متساوية للمراة". وتعطي هذه الاستراتيجيات الأربعة وزناً كبيراً للخطاب والتأويل.

1- استراتيجيات مفاهيمية: ترتبط بالخط بين مستويات المفاهيم القرآنية وتقديم مفهوم القوامة باعتباره السلطة الأعلى للرجل في المجتمع الإسلامي من ناحية، مما يعطل مفهوم الولاية ومفهوم الاستخلاف وهم أساس الرؤية الإسلامية للمواطنة، ومن ناحية أخرى فإن تأويل مفهوم القوامة باعتباره سلطة أحادية مطلقة دون أي قياس على النصوص القرآنية ودون اعتبار الممارسة النبوية لهذا المفهوم.

2- استراتيجيات توظف أصول الفقه بشكل غير دقيق وغير عادل، فتنبنى التغليب في الخطاب القرآني وتفترض أنه موجه للرجال ما لم تدل قرينة على دخول النساء فيه، وتقدم سد الذرائع على القرآن الكريم والسنة النبوية، وتتوسع في استخدام الإجماع الأصولي لتولية النساء في العصر الإسلامي الأول مناصب سياسية ودبلوماسية باعتباره دليل رغم أن الترك ليس حجة. ويجتهد هذا الخطاب في مناقضة حجج الخصوم بالتمسك بقراءة مشوهة للنص الشرعي يناقضها منهج أصول الفقه ذاته، فهي تتجاهل أسباب النزول ولا ترصد تطور التشريع القرآني والنبوي، فهو "تأويل مضاد" وليس تأويل أصولي إذا شئنا الدقة.

3- استراتيجيات خطابية جدلية اختزالية في التعامل مع التاريخ ومع الواقع، فتتم من ناحية الإشارة إلى التجربة النبوية وانتقال المراة من وضع الجاهلية إلى وضع المجتمع الإسلامي وحركتها في ميادينها المختلفة، لكن من ناحية أخرى لا يتم تفعيل هذا التصور في الواقع الراهن أو استخدام القياس في الاجتهاد بشأن وضع المراة وحقوقها السياسية في المجتمع الحديث، ذلك أن تصورات المجتمع الحديث ذاته غير متطورة بالقدر الكافي ابتداءً لكي يتم تقديم رؤية عن مشاركة المراة فيها. ولا يوجد، من ناحية ثانية، وعي بمشاركة المراة في الواقع والأفق المتاح لها في التيارات الأخرى، من الناحية الفكرية على الأقل، رغم عدم التمثيل الكافي في الكوادر والدوائر والمستويات الحزبية لدى كافة التيارات، والمحصلة هي وضعية للمراة في تصور الحركات السلفية تضعها دون الواقع المتاح لها، وهي مفارقة تجعل التصور الإسلامي الذي بدأ أفقا تحررياً ونهضوياً للمراة يتحول لأفق تقييد ومصادرة لحرريات وحقوق أساسية بالمعيار الإسلامي وبمعيار العصر.

ومجمل الأمر أن علاقة التيار السلفي بقضايا المراة يدور في الاحتفاظ بنسق فقهي قديم دون اجتهاد، والدوران في دائرة رد الفعل مع المستجدات، وسيادة عقلية المؤامرة، مبدأ التضاد والجدلية مع الأطروحات العلمانية، فإذا دعت الأخيرة إلى عمل المراة تحفظ الإسلاميين، وإذا دافع العلمانيون عن حق المراة السياسي صدرت فتاوى تحرم ترشيح المراة في المجالس النيابية، مع اتهام الطرف الآخر في هذه المسائل بالتآمر والعمالة والصهيونية والماسونية والصليبية.

4- استراتيجيات برامجية تضع قضية المراة ضمن أجندات سياسية، ففي حين يمكن الاجتهاد في قضايا المراة وتطوير رؤية معاصرة تترجم وتفعل النسق الإسلامي الذي أعطى المراة حقوقاً متساوية في المجتمع الإسلامي الأول، وضمنت النصوص الملزمة هذه الحقوق، أضحت قضية المراة محكاً للصراع السياسي وإثبات المفارقة والمفاصلة المبدئية بين التيار السلفي وغيره من التيارات، ليس خارج المرجعية الإسلامية كمرجعية سياسية فحسب، بل داخل هذه المرجعية ذاتها، حيث جرى نوع من المزايدة في "المحافظة" والتضييق على المراة داخل التيارات. ومن الطريف أن الذين أفتوا بمنع دخول النساء السياسة عادوا فأفتوا بجواز دخول القوات الأجنبية أرض الجزيرة، رغم أن للمنهج السلفي موقف متشدد من تلك القضية، فالتشدد له اعتبارات سياسية في التحليل والتحرير تعصف بالفقهي، حتى الجامد منه، لصالح السياسي. (عزت، 2005).

وبالرغم من أن هبة رؤوف عزت تطرح ما تسميه مواطن التباين بين التيارات السلفية وجماعة الإخوان المسلمين فيما يخص الموقف من المراة والخطاب حولها، فجماعة الإخوان، بشكل عام أكثر، تسامحاً مع المراة، إن جاز التعبير، "على الجانب الآخر نجد أن تيار الإخوان يتخذ موقفاً مبدئياً يناصر حصول المراة على حقوقها السياسية، ويقبل فقها واجتهاداً صاغه علماء معاصرون من داخل الحركة أو من القريبين منها"، إلا أن نظرة تحليلية أعمق على أدبيات ومنطلقات جماعة الإخوان لا تقودنا إلى نفس النتيجة.

نشرت جماعة الإخوان مؤخراً²² "المشروع السياسي لسوريا المستقبل: رؤية جماعة الإخوان المسلمون في سوريا" أكدت فيه على التماثل الإنساني بين الرجال والنساء، والتمايز في بعض الأدوار المتعلقة بالأمومة والأنوثة، مع تكامل بين الجنسين في المجتمع، ورأت أن الذي يهدد الأمة هو ظلمات ثلاث: التغريب، والتقاليد، والغلو، لكنها عادت وأكدت أن البيت هو الأساس بالنسبة للمراة وأن المشاركة العامة تكون لمن تقدر وتستطيع، وأن للمجتمع فائض جهد المراة، وهو ذات الهاجس الذي نجده في كتابات الإخوان منذ حسن البناء؛ أي الاقتناع الفكري بالمساواة الإنسانية، والقلق من انهيار جبهة الأسرة، وكأن الأسرة هي جبهة المراة وحدها، وكأن الخروج العام ليس دعمًا للأسرة، فهناك تقسيم حاد بين الخاص والعام، وبين الأسري والسياسي، وتقسيم في الأدوار راسخ في العقلية رغم الاقتناع بالاجتهادات المختلفة الداعمة لدور المراة السياسي.

إن هذا التراوح قد يعكس تردداً في موقف الإخوان بقدر ما يعكس قلقاً على تعرض النساء لما يتعرض له الرجال من سجن وتعذيب، ويتضح في الحاجة، كل مرة يذكر فيها الحق السياسي، إلى التأكيد على الدور الأسري، حتى في البيانات السياسية التي تتطلب الاختصار، كما أنه من الطرائف وضع المراة قبل الحديث عن

²² عام 2004.

الأقباط، وليس في مفتح البيان أو المنشور أو برنامج الإصلاح. وهو استبطان، من ناحية، لهجوم المخالفين من أن مشروع الإخوان السياسي متأزم حول هاتين النقطتين، ومن ناحية أخرى يضع المرأة مع الأقباط وكأنها فئة أو أقلية، وهو ما لا ينطبق على المرأة، ناهيك عن عدم تطابقه هذا الموقف مع الموقف من الأقباط في نظر تيارات عديدة. وهي مشكلة في النسق والهيكل الفكري وخرائط القضايا وتقسيمها الذهني بعيدا عن المضمون الذي يؤكد المساواة، لكن لا تعكسها السياسات الفعلية للتيار معظم الوقت. (عزت 2005).

إن الفصل بين الأسرة والمجتمع، بين المجال الخاص والمجال العام، محوري وحتمي إذاً، حتى وإن ادّعوا، وإن كان عن صدق، غير ذلك، فمجل خطابهم أنه لا أحد ينكر الدور الذي تلعبه المرأة، لكن "البيت هو الأساس"، والمشاركة في الحياة العامة هي الاستثناء وليس القاعدة، ولمن تستطع إليه سبيلاً. وحتى المبرر الذي صاغوه، القلق والإشفاق على المرأة من تحمل تبعات الولوج إلى مضمار المجال العام والعمل السياسي من احتمالات التهديد والاعتقال وما شابه، إن هذا المبرر يبطن خطاباً ذكورياً بامتياز ويمنع عن المرأة حق الاختيار والقرار وتحديد المصير وتحمل مسؤولية ذلك.

أما في غير السياسة والمجال العام، فعموم الخطاب الديني لا يتوجه إلى المرأة إلا في أضيق الحدود، فهو ليس خطاباً مهيناً للمرأة بل خطاباً لا يعترف بحقها الكامل في الوجود. إن ما يوجه إلى المرأة هو ما له علاقة بأحكام الصلاة والصيام والوضوء والطهارة والغسل مثلاً، وقد اصطلح على تسميته "فقه المرأة"، ويتم التركيز فيه على وجوب طاعة الزوج، بالإضافة إلى الموضوع الأثير وهو الحجاب الذي به يحدث كل الخير وبدونه تصيبنا كل الشرور²³؛ وبسببه تدخل المرأة الدرك الأسفل من النار وتعلق فيها من خصلات شعرها هذا أو تدخل الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن ذلك رقيقاً.

أما فيما يخص العقيدة والإيمان والإحسان وما إلى ذلك فنادرًا ما يتوجه الخطاب الديني إلى المرأة. لا نتحدث هنا عن ضمير المخاطب مثلًا بصيغة الذكر (أنت) والأنثى (أنت) ولكن فيما يخص الموضوعات المتناولة والأمثلة، فدائمًا ما يخاطب الخطاب التقليدي الرجل ذا المسؤوليات الجمة في العمل أو الشاب الباحث عن فرصة ويتلمس طريقة في الحياة، ولا يخاطب السيدة أو الفتاة في نفس الظروف ولا يتناولهن حتى على سبيل الإشارة إلا فيما ندر. حتى الدعاة الذين يشتهرون بموقف متعاطف مع المرأة فإن خطابهم لا يحمل أي إشارة إليها، ففاضل سليمان مثلاً يتحدث برحابة شديدة عن تكريم الإسلام للمرأة وموقفه التقدمي جدًا منها بالمقارنة بوضعها في الجاهلية أو الأديان والمجتمعات السابقة على الإسلام، لكن مجمل خطابه لا يذكرها في

²³ انتشر ملصق للإخوان المسلمين في أواخر التسعينات يؤكد أن "سفور المرأة سبب الهزيمة في حرب فلسطين".

غير هذا الموضوع. المرأة إذاً مجرد عنوان لحلقة ما أو كتيب صغير أو قسم على موقع إلكتروني، وباقي المحتوى كله مخصص وموجه للرجل والرجل فقط.

إن الأكثر من ذلك أنه في المرات النادرة التي تذكر فيها المرأة تكون بسبب العلاقة بذكر ما، فهي إما زوجة (زوج) أو أم (ابن) أو ابنة (أب) أو أخت (أخ). وأي "أخت" أو "ابنه" سوف تكون زوجة لأحدهم في المستقبل القريب، وأم نتمنى أن تنجب صلاح الدين هذا العصر، لكنها غير موجودة بشكل مستقل، غير موجودة بكيونتها امرأة فقط، وأي فتاة غير متزوجة وتتولى أمر نفسها ليس لها أي وجود في مثل هذا الخطاب.

والملفت أن هذا النمط من الخطاب طاغي وسائد لا يختلف فيه الدعاة الرجال عن الداعيات، بل إن بعض الداعيات تفوقهن على نظرائهن في هذا الصدد. فقررت الداعية رضوى أم معاذ مثلاً أن "الست بفطرتها بتحب إن هي تبقى حاسة إن هي عايشة في طاعة رجل. إن هي عايشة في سلطة رجل هو اللي مسؤول وهو اللي يُسأل وهو اللي يُحاسب"²⁴. وعلى المستوي الجسدي تستكمل أم معاذ أنه لا يجوز للزوجة أن تغادر منزل الزوجية إلا بموافقة زوجها لأنه ربما يحتاجها في الفراش²⁵.

العلوم الدينية والدينية:

وضع الشيخ أبو أسحق الحويني²⁶؛ أحد أبرز قيادات التيارات السلفية وأشهر المحدثين (علماء الحديث)، ما يرى أنه القول الفصل في هذه المسألة وبنبرة قطعية لا تترك مجالاً للجدل: "العلم بتاع الرجاله بس"، وذلك في برنامجه الأسبوعي "فضفضة" على قناة "الناس"²⁷. ويوضح:

"انهارده في بعض، أو قناة من القنوات الإسلامية²⁸، سمحت لأخوات منتقبات إنهم يعملوا برامج للجماهير مرئية في القناة الفضائية. واحدة بني أدمة منتقبة قاعدة قدام الكاميرا عشان تخاطب الملايين. وقالوا أننا رأينا هذا في بعض القنوات. ما هو ده من الخبل. هذا من الخبل الذي نعيشه الآن. بأي دليل تخرج امرأة على قناة

²⁴ مقطع مصور موجود على صفحة "تخاريف الشيوخ" على موقع فيسبوك بتاريخ 15 ديسمبر 2012 طبقاً لإدارة الصفحة. رابطته <https://www.facebook.com/photo.php?v=315380051901631>

²⁵ نفس المصدر السابق بتاريخ 9 ديسمبر 2012. الرابط: <https://www.facebook.com/photo.php?v=351943451571056>

²⁶ اسمه الحقيقي حجازي محمد يوسف شريف.

²⁷ مقطع مرئي (فيديو) على الموقع الإلكتروني يوتيوب بعنوان "أبو اسحاق الحويني العلم للرجال فقط والنساء جهلة ولا يفقهون شيئاً" ورابطته: <http://www.youtube.com/watch?v=s1bS4gitoS0&feature=related>، ونفس المقطع مع أول جملة على الرابط <https://www.youtube.com/watch?v=MthtOISUJ3s> بعنوان "العلم للرجال فقط أبو اسحاق الحويني" بتاريخ 2 أغسطس 2009. كثر تداوله في أعقاب الاستفتاء على التعديلات الدستورية في مارس 2011، وظن كثيرون خطأ أنه من حلقة جديدة.

²⁸ يقصد قناة "ماريا".

فضائية تواجه الكاميرا وتخاطب ملايين الناس في جنبات الأرض؟! وماذا عند هذه المراة من العلم حتى تقدمه؟! العلم إنما هو للرجال. العلم بتاع الرجالة بس. أي امرأة، مع احترامي يعني،... مهما سعدت هي مُقلّدة وعامية. مفيش امرأة دارسة العلم على أصوله تعرف تفرّع صح وتعرف تستنبط صح وتعرف تخرّج صح وتعرف الحديث صحيح ولا ضعيف. مفيش الكلام ده. مفيش واحدة أنا أعرفها على الأقل، وأنا أعرف تقريباً معظم المُعلّّمات اللي بيعلّموا في مصر، من الأسئلة اللي بيسالوني أياها والكلام ده. فأنا عارف مستواهم. نفع الله عز وجل بهم كثيرات من الأخوات. آه ممكن تقعد تعمل مجلس، درس في مدرسة، في معهد علمي والكلام ده. ليه؟ لأن الجهل فاشي في النساء. معروف. الجهل فاشي في النساء. فأني مُعلّمة من دول قرت كلمتين ولا ثلاثة ولا أربعة لتستطيع إن ربنا يهدي بها كثيرات من الأخوات. لكن أنا عايز أفهم يعني، والأصل عندنا أن تقر المرأة في بيتها، والأصل أنها لا تخاطب الرجال إلا لضرورة وإنما تعتزل الرجال. ده الأصل الاصيل في القرآن والسنة... (الحوييني، 2011).

لم يشفع لهن إذا نقابهن، وهو فضل وليس فرض حتى عند الكثير ممن يطلق عليه متشددين، ولن يشفع لهن أي شيء في هذا الصدد، فسيظل كونهن سيدات وصمة عار تطاردهن في حياتهن، وربما مماتهن أيضاً. ومهما اجتهدن وأخلصن في طلب العلم ليس عندهن أي شيء مفيد لتقديمه، ولن يصلن أبداً إلى منزلة أي رجل مهما قل مستواه، أو حتى انعدم في هذه الحالة. فالعلم "إنما هو للرجال" بصيغة القصر لتفيد التخصيص والتوكيد، ثم زاد التوكيد توكيداً بإعادة نفس الجملة بصيغة العامية، وكأنه يريد الرسالة أن تصل للجميع بوضوح لا يشوبه لبس بأن المرأة تعلم امرأة مثلها. وهذا لسبب وجيه مفاده أن الجهل تفتش بين النساء، وكأنما أصاب داء الجهل النساء فقط دون الرجال. وكررها مرتين ووصل بينهما بـ"معروف" في استمرارية لتقديم خطابه كله، وكأنه حقائق علمية مثبتة ليس فيها جدال ولا مساحة للأخذ والرد أو التعقيب.

وكان الشيخ، صاحب الإسهامات الجلييلة في علوم الحديث، وصاحب الشعبية الكبيرة بين صفوف السلفيين والمنتمين إلى مختلف التيارات الإسلامية²⁹، قد أدلى بدلوه أيضاً في مسألة اتصال النساء ببرامج تجويد القرآن الكريم³⁰ بأنه "منكر لا يجوز ولا تفعله امرأة تؤمن بالله واليوم الآخر"³¹، وذلك في نفس الحلقة من برنامجه.

²⁹ عندما وجد هذا المقطع المشار إليه طريقه إلى رحاب الفضاء العام بعد أن تم نشره بكثرة على مواقع التواصل الاجتماعي ومناقشته في البرامج التليزيونية المختلفة، وأثار جدلاً كبيراً وأستياء أكبر، وجدت صورته طريقها إلى الحسابات الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي حيث وضعوا صورة الحوييني- والذي يطلقون عليه "أسد السنة"- بدلاً من صورهم الشخصية حتى بين من كانوا يلومون عليه في هذه "الفتوى"، حيث رأوا أن الهجوم على الرجل كان شديداً واستاءوا من التهكم والسخرية الذي صاحبه، وأن الرجل إذ يصيب ويخطأ لكننا أبداً ليس لنا أن ننكر فضله على علوم الحديث. جاء هذا في محادثات شخصية وعامة مع عدد من أعضاء التيارات السلفية وجماعة الإخوان المسلمين والمتردددين على دروس العلوم الشرعية.

³⁰ وربما من أشهرها برنامج "كيف تقرأ القرآن؟" للدكتور أيمن رشدي سويد على قناة "اقرأ".

³¹ من نفس المقطع السابق، وأيضاً من مقطع بعنوان "اتصال النساء ببرامج التجويد - نصيحتين من الشيخ الحوييني"، وابطه <http://www.youtube.com/watch?v=P97BRGYEb90>.

وبخصوص العلوم الدنيوية (في مقابل العلوم الشرعية) أفتى الحويني من على منبر المسجد بأن "كل البنات اللي في الكليات المختلطة أثمات. كلام نهائي... إحنا مش محتاجين النسوان في الكلام ده"³². وفي موضع آخر "ربنا عز وجل مفروض عليها إنها تكون طيبية، لكن فرض عليها إنها تكون أمة لله"³³.

ليس غريباً إذاً أن نجد خالد الشافعي والذي يُعرف نفسه على صفحته الشخصية على فيسبوك أنه كاتب، ويخاطبه من يعلق على كتاباته على الصفحة والحساب الشخصي بـ "شيخ" ينص صراحة على تحريم ذهاب الفتيات للجامعات، ويذكر في حالة status حذفها بعد نشرها بساعات بعد أن انتشرت انتشاراً كبيراً بأن الجامعة ما هي إلا "ماخور" كبير، لكنه لم يُحرم على الذكور الذهاب إلى هذا الماخور يومياً. وتبع ذلك بحالة أخرى، ربما تكون توضيحية جاء نصها:

- ذهبت الفتاة الصغيرة الطالبة في المرحلة الإعدادية مع أختها الكبرى إلى كلية الأخت الكبرى.

- عادت فتاة الإعدادية لتخبر جدتها بمنتهى البراءة أنها سمعت صديقة أختها تخبر إحدى صديقاتها أنها أهدت إلى زميلها في الجامعة ملابسها الداخلية بعد أن قامت بتعطيرهما.

- حين أخبرتني أمي بهذه القصة وهي مفجوعة، بذلت مجهوداً خارقاً لحبس دموعي أمام السيدة العجوز لكنني قررت أن أخرج غضبي كله هنا على الصفحة.

- فقط أريد أن أقول:

1- الجامعة في مصر أكبر شقة دعارة (اللي هيكتب فيه شرفاء هعمله بلوك عشان أنا عارف أن فيه شرفاء وشريفات)

2- عدد حالات الزنا وحمل السفاح لفتيات الجامعة بالملايين والعهددة على أرقام ومحاضر رسمية نشرتها الأهرام ومن سنوات.

³² من مقطع مرئي (فيديو) على موقع يوتيوب بعنوان "حكم تعليم البنات بالجامعة أبو إسحاق الحويني" بتاريخ 29 يونيو 2009، ورابطه <https://www.youtube.com/watch?v=dM8xEwq1XLs>.

³³ "أبو إسحاق الحويني - مشكلة النساء العاملات" مقطع مصور رُفِع بتاريخ 12 مارس 2009 على الرابط: <https://www.youtube.com/watch?v=JIfWWCV77kE>.

3- الاختلاط في الجامعة محرم قطعاً ولا يجوز لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن تدخل ابنته كلية مختلطة قط، فضلاً عن أن تكون كليتها خارج مدينتها فتسافر بلا محرم أو تقيم وحدها بجوار الجامعة، وعلى هذا فكل فتاة في جامعة مختلطة تأثم شرعاً هي وولي أمرها.

4- مش قادر أفهم ازاي راجل محترم يسمح لبنته تروح للجامعة في هذه الأجواء المنحطة.

5- ملاحظة أخيرة بالنسبة للصراصير اللي بيقلوا إسلامية إسلامية إيه؟ أمال هي مصر دولة مش إسلامية ولا إيه؟ أحب أقولهم لا مصر ليست دولة إسلامية يا صراصير.³⁴

إن الشاهد هنا أنه لم يوجه كلامه للفتيات والطالبات لينفذهن من غضب الله وأهوال يوم القيامة وعذاب القبر جراء ذهابهن إلى- حاشا لله- الجامعات، بل وجهه لأولياء أمورهن، الرجال طبعاً مرة بلغة فصيحة- لغة القرآن والسنة "الرجل يؤمن بالله واليوم الآخر" ومرة بلغة عامية دارجة "راجل محترم". وفي المرة الوحيدة التي وجه خطابه للفتيات تبعها مباشرة بخطاب موجه للرجال "فكل فتاة في جامعة مختلطة تأثم شرعاً هي وولي أمرها". حتى فيما يخصها، فالمرأة غائبة أيضاً في هذا النوع من الخطاب؛ هي الحاضر الغائب دائماً أو كما عبر نصر حامد أبو زيد حضورها هو "حضور ظاهري... مرتهن بالنفي" (أبو زيد، 2004).

ولم يخلُ خطاب خالد الشافعي من لهجة القطعية؛ "محرم قطعاً" و"قط"، وقد كان في ذلك مثل خطاب الحويني في هذا الإطار، الإطار الذي أشار إليه بـ "الكلام ده"، فكل ما يقوله هو "كلام نهائي" والقول الفصل الذي ليس بعده قول ولا مجال للاستثناءات: "كل البنات" عند الحويني و"كل فتاة" عند خالد الشافعي.

عمل المرأة:

إذا كان هذا الحال مع التعليم، فما بالناس يعمل المرأة. فيكاد يكون من الكبائر؛ هو أصل الشرور وسبب خراب البيوت الناتج عن عدم طاعة المرأة لزوجها. "مين اللي فر عنها وخلها كده، تتاطي لمديرها وتبرم شنباتها لجوزها... فسدت البيوت وبقم شبابنا دلوقت خرع مرع ورق."³⁵ وفي موضع آخر "في أسر كثيرة بكل أسف متصدعة. في مشاكل. الدفاء والحنان ودفاء التواصل بين الرجل والمرأة ولى من البيوت وصارت

³⁴ رابط الحالة من على حساب خالد الشافعي الشخصي بتاريخ 2 إبريل 2013:

<https://www.facebook.com/khaledshafey/posts/359624740815022>

³⁵ "أبو إسحاق الحويني - مشكلة النساء العاملات". سبق ذكره.

البيوت عيشة على أخف الضررين.³⁶ خروج المرأة إلى العمل أيضًا يعرضها إلى مخاطر أن يتعرض لها أحدهم في المواصلات أو الشارع أو محل العمل، فضلاً عن تبعاته من تقصيرها في حق بيتها وتربية أولادها، وهي مسئوليتها الأساسية. "جدير بالملاحظة في هذا الطرح الذي ظاهره الرحمة بالمرأة والإشفاق عليها أنه يتجاهل معاناة الرجل أيضًا، بل الأدهى من ذلك افتراض أن معاناة المرأة وحدها هي التي تؤثر على الأسرة وتربك حياتها. إن الإشارة إلى الأسرة في الواقع تعني الإشارة إلى الرجل الزوج أساساً وكأن معاناة الرجل في ظروف العمل والمواصلات العامة غير الآدمية معاناة لاشأن للأسرة بها" (أبو زيد، 2004)³⁷. المرأة محصورة إذًا في بيتها وزوجها وأولادها، وهذا كل إسهامها في الحياة، وليس لها مكان في الشؤون العامة. "ينبغي على مقولة احترام المرأة والحرص على حمايتها من الامتهان القول بأن المهمة الأساسية للمرأة هي تربية النشء ورعاية الزوج والحرص على الاستقرار العائلي.

مرة أخرى نلاحظ محورية دور الرجل الزوج في مثل هذا الطرح، هذا بالإضافة إلى تحميل الزوجة وحدها عبء تربية النشء حتى يكاد ينفي مسؤولية المجتمع في التربية والتنشئة." (أبو زيد، 2004)

التحرش الجنسي:

مع تتبع النمط السائد والأنموذج الإدراكي، إذا استخدمنا مصطلحات عبدالوهاب المسيري، ليس من المستغرب على الإطلاق توقع ما على هذا الخطاب الديني السائد قوله فيما يخص التحرش والاعتداء الجنسي والاعتصاب بل الاعتصاب الجماعي.

في وصف فيديو للداعية سعد عرفات حول أسباب التحرش، سطر(ت) صاحب(ة) الحساب، وهو(ي) أيضًا مدير(ة) صفحة "أنا مش هسكت على التحرش" على الفيسبوك، ما يجمع الأساطير الإغريقية بالواقع.

تقول الأسطورة الإغريقية القديمة أن باندورا هي أول امرأة في التاريخ، خُلقت بأمر من الإله زيوس عقابًا للرجال على ذنوبهم. فبعد أن سرق بروميثيوس سر النار من آلهة الأولمب وعلمه للبشر، قررت الآلهة معاقبة البشرية بطريقة مبتكرة، فأمر زيوس بخلق المرأة عقابًا إلهيًا للبشرية، وتم منحها صندوقًا مغلقًا لا يحق لها فتحه. سيطر الفضول على باندورا وقامت بفتح الصندوق المغلق، فأظلم العالم فجأة بعد أن كان خاليًا من

³⁶ "المرأة؟ حلقة نادرة وهامة للشيخ أبي إسحاق الحويني" مقطع مصور من قناة "الناس" رُفِع بتاريخ 7 يونيو 2011 على رابط <https://www.youtube.com/watch?v=4jBEmWNpT5k>

³⁷ الإشارة هنا لطرح الفريق سعد الدين الشريف عضو مجلس الشعب الذي تقدم عام 1977 باقتراح "عودة" المرأة العاملة إلى البيت مع حصولها على نصف الراتب. يستنطن هذا الاقتراح، والخطابان السياسي والديني اللذان أيداه، البيت-ومن ثم المجال الخاص- كملاذ أول وأخير للمرأة. يربط أبو زيد السياقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعام 1977 كعام فيصلي على الكثير من الأصعدة ولا يستعجب أنه شهد- تحت قبة البرلمان- أول المطالبات بانسحاب المرأة من المجال العام. ولا عجب أيضًا أن أفكار أبو زيد لا زالت صالحة للتعليق على الخطابات المعاصرة.

الشروع، وخرجت من الصندوق كل شرور العالم من نفاق ومرض وجوع وفقير. أغلقت باندورا الصندوق بسرعة ولكن قبل أن يخرج منه "الأمل"، وبهذا تحولت جنة البشر السعيدة إلى جحيم لا يطاق بسبب المرأة. والآن، رحل الإغريق القدماء، وبقيت أسطورة صندوق باندورا، فلا زال في مجتمعنا من يؤمن بأن المرأة هي سبب كوارث البشرية، ولا زال يوجد من يردد أنه لولا وجود المرأة لكان كل الرجال يحيون في الجنة.

لا مبالغة في ذلك، حيث أكد الداعية أن المرأة هي سبب التحرش حتى لو التزمت بالنقاب. "بدأ ربنا عز جل بـ"الزانية" لأن المرأة هي التي تدعو إلى الإثم... أنت الداعية. اعلمي أنك السبب... لعلكي خرجت بغير حاجة فسلط الله عليك هذا الذئب. انتبهي. انتبهي وأنا أقول كلاماً أعرفه وأعيه."³⁸ الملفت هنا ليس إصاق كل الإثم على المرأة ولكن أيضاً- في نمط متكرر- تذييل الكلام بلهجة تضي عليه المزيد من الشرعية وتضعه مصاف الحقيقة المطلقة. لا يختلف هنا داعية كبير في السن بلحية بيضاء تضي عليه وقاراً وشموخاً مثل سعد عرفات، وآخر أصغر سناً يتفاخر بقوته وحنفوانه وذكوريته ويصدر أحكاماً لا تنطوي على شك بشأن التحرش الجماعي في ميدان التحرير بأن "البنات عايزة كده ونازلة التحرير عشان كده"³⁹، أو بصورة أقل فجاجة ولكنها تنطوي على نفس المنطق عند عمار مطاوع الذي يقدم نفسه على، أنه باحث ومدقق لغوي، ينشر في حسابه الشخصي على الفيسبوك الذي يمتلئ بنقد ما يرى أنه تسبب وتفريط عند الإخوان المسلمين، وأقام الدنيا عليهم بعد نشر أجزاء من فيلم لبعض شباب الإخوان بعنوان "ليه أنا إخوان" لأن من ضمن من ظهرُوا أخوات أعضاء في الجماعة يرتدين أغطية رأس ملونة واستقره منهن بشكل خاص ما يسميها "الأخت اللي بالطرحة الخضراء"⁴⁰.

أدوات المقاومة

"ومعنى ذلك كله أن الهاجس الأساسي في كل أطروحات الخطاب الديني عن المرأة هو هاجس تغطيتها وسترها: تغطية العقل أولاً بحجبه عن آفاق المعرفة الحرة، وحجب وجودها الاجتماعي ثانياً بحبسها داخل أسوار البيت، والأهم من ذلك كله ستر وجودها الفيزيقي بالحجاب الذي يعد تجسيداً رمزياً لكل معاني التغطية العقلية والاجتماعية" (أبو زيد 2004). ليس غريباً إذاً أن يتم استخدام هذا الهاجس أداة للمقاومة. فإذا كان معظم

³⁸ فيديو بعنوان "على طريقة باندورا: حتى لو منقبة، انتي سبب التحرش" للداعية سعد عرفات من حلقة أذيعت على قناة الرحمة بتاريخ 11 يوليو 2010، ورابطه http://www.youtube.com/watch?feature=player_embedded&v=IdaiavxFDMI

³⁹ جاء هذا في عدة مواضع عند عبد الله بدر، التسجيل هنا على سبيل المثال <http://www.youtube.com/watch?v=NgWbGR75OgI>

⁴⁰ على خطى صديقه خالد الشافعي، أزال عمار مطاوع هذه الحالة بعدما لامه الكثيرين لما اعتبره خوض في أعراض الأخوات الاتي ظهروا في الفيلم، حيث تسائل عن الصلة التي تجمعهم بالمشاركين في التصوير ليتواجدوا معا في نفس المكان بدون محرم، وكذلك عن جدوى ظهورهن بضحك أمام الكاميرا. رابط حساب عمار مطاوع: <https://www.facebook.com/ammaronline?fref=ts>

الخطاب الديني للمرأة يتمحور حول الحجاب فهذا الحجاب عينه هو وسيلة المقاومة. وأي متابع سيلاحظ بشدة موجات كبيرة من التخلي عن الحجاب بين الفتيات والسيدات، ومنهن من التزم به لسنوات وسنوات. لا يصاحب هذا عادة تغير في الرؤية للدين ولكنه يكون محاولة لترتيب الأولويات ومحاولة فردية تصبح مع تكرارها ظاهرة جماعية لمقاومة تشيء المرأة إلى مجرد حجاب.

وملاحظ أيضاً مقاومة شديدة لكثير من الخطابات الدينية المستخدمة في سياقات مختلفة. وتأخذ هذه المقاومة أشكال شتى من استنكار واستهزاء، ومثلما تخبرنا القاعدة الفيزيائية الشهيرة أن لكل فعل رد فعل تجيء الردود متناسبة مع الخطاب، وفي أحيان كثيرة تتعداه حجماً. ربما يكون من أوضح الأمثلة على ذلك الحلقة التي ظهر فيها الداعية محمود شعبان واستنكر على الرئيس محمد مرسي ظهوره في حوار تلفزيوني مع مذيعاً مؤكداً "لازم راجل"⁴¹ أو حتى مبادرات فردية مثل الصورة التي التقطها الناشط الحقوقي الصحفي عمرو عزت من على كورنيش الإسكندرية لجملة "أترضاه لأختك" وبجوارها بخط مختلف "أبوة أنا حرة"⁴².

يتوازي مع ذلك، ربما بصورة جماعية وتنظيمية أكبر، حدة وعنف شديدين في صد ومقاومة أفعال التحرش، ولا تستسلم أغلب الفتيات الآن إلى الصمت عند تعرضها للتحرش بل تعنف من قام بالفعل وتضربه وتعندي عليه بما تطوله يدها مع عدم تفاعل وربما استنكار كبير ممن حولها، في أحيان كثيرة. ربما يفسر ذلك توحش هذه الأفعال نفسها وتحولها من مجرد معاكسة لفظية إلى اغتصاب جماعي منظم في وضوح النهار، لكنه أيضاً مقاومة عنيفة لخطاب ديني ومجتمعي جعل من الفتاة الجانية برغم كونها ضحية. الضحية إذاً تنتفض وتتمرد على دورها التقليدي وكأنها تقول للجميع اصمتوا فقد جاء دوري الآن.

خاتمة:

المهم في مثل هذا الخطاب السائد وما عُرض من أمثلة أنه يختصر المرأة في كونها قضية تُناقش، وفي هذا الحقيقة يشترك الخطاب الإسلامي مع ما دونه، وتحديداً الخطاب الليبرالي أو العلماني الذي يعتبره الإسلاميين نداءً. فالمرأة دائماً وأبداً مفعول به وليس فاعلاً، وهي، وتحديداً جسدها، محل النقاش، لكنها قلما تشترك فيه. هي أخت محجبة أو منتقبة يجب أن نخاف عليها من الليبرالية التي سوف تمنعها من ارتدائه، أو أجبرت على ذلك تحت ضغط وقهر ويجب علينا مساعدتها للتحرك منه. تجلى هذا في الجدل على رأس أمنية نوح زوجة الراحل محمد يسري سلامة المتحدث الرسمي السابق باسم حزب النور وعضو مؤسس بحزب

⁴¹ رابط المقطع على يوتيوب: <http://www.youtube.com/watch?v=8v5GRmia2fU>

⁴² رابط الصورة من على حساب عمرو عزت على الفيسبوك: https://fbcdn-sphotos-a-a.akamaihd.net/hphotos-ak-ash4/483323_10152384263340511_222101657_n.jpg

الدستور. في جنازاته وعقب ظهورها في حوار تلفزيوني، احتدم النفاش وانقسم إلى فريقين؛ الفريق الإسلامي الذي ينكر على الراحل سماحه بسفور زوجته وعدم التزامها بالحجاب، والفريق المناوئ الذي تحدث بإيجابية شديدة عن السلفي المتحرر الذي لم يجد حرجاً في عدم حجاب زوجته. الفريقان تحدثا عن رأسها وشعرها وجسدها كأنهم أجزاء قائمة بذاتها ومنفصلة عن كينونتها هي، وتحدثا عن زوجها الراحل، غير الموجود أصلاً في هذه الحياة، ولم يتحدث أحد قط عنها هي، عما إذا كانت هي تريد أن ترتدي حجاباً أم لا. ليست مشكلة نوع خطاب متشدد إذًا، إنها مشكلة مجتمع بأكمله يتحدث عن نصفه وليس معه، يتحدث عنه وكأنه غير موجود، وهنا تتجلى المأساة.

قائمة المراجع:

العربية:

- أبو زيد، نصر حامد (2004). *دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت.
- الحاج، عبد الرحمن (2012)، *الخطاب السياسي في القرآن: السلطة والجماعة ومنظومة القيم*. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.
- الطائي، معن (2006). "ميشيل فوكو بين التاريخية الجديدة والمادية الثقافية"، الحوار المتمدن العدد 1467 بتاريخ 20 فبراير 2006 على الرابط: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=57697#>
- المسدي، عبد السلام (2007)، *السياسة وسلطة اللغة*، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- (2005). "حول مواقف القوى السياسية، خاصة الحركات الإسلامية، والحركات الدينية، من تمكين النساء في البلدان العربية" على الرابط: <http://www.arab-hdr.org/publications/other/ahdr/papers/2005/raouf.pdf>
- غرو، فريدريك (2008). *ميشال فوكو، ترجمة: محمد وطفه*، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع (مجد)، بيروت.

الأجنبية:

- Tyson, Lois (1999). *Critical Theory Today*. Garland Reference Library of the Humanities; Volume 2070. USA.
- Whisnant, Clayton. "Foucault and Discourse" A Handout for HIS 389. Retrieved from http://webs.wofford.edu/whisnantcj/his389/foucault_discourse.pdf

المصادر:

- لقاءات متعددة مع علي الرجال (2009-2012).
- محاضرات وحوارات متعددة لأميرة نويرة وعزة الخولي وسحر حموده وسوزان مشعل وعصام فتوح وشادية السوسي بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية (2001-2012)، ومحمد صفار بمكتبة الإسكندرية (2011).



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com